تجربة بين معلمتين:
الآن أحدد المعنى الذي كان يحددني

أمل قطّاوي

الإنسان قصة مجتمع، مجتمع يحبكه بخيوط الثقافة والرغبة، وإنسان يحبكها بفعل الرغبة، العقل والمقاومة كتاريخ، ولأن الإنسان تاريخي بطبعه؛ أي أنه يعيش في وسط اجتماعي يكونه ويتكون فيه، يغيره ويبدله ويتغير أثناء التبديل. من هنا، فإن للمعلم أدواراً حيوية في المجتمع، بقدر رصيده المعرفي ودوره المجتمعي بغض النظر عن مكانته السلطوية.

فمن أجل التأثير في الآخرين، يجب أن نكون نحن المعلمين قادة هذا التغيير، ولذلك فلنبدأ بأنفسنا للتطوير الذاتي المتواصل المتأمل لفعلنا التربوي المجتمعي. وفي هذا السياق، وضمن مشروع مع مركز القطان، اخترت أن أنخرط في هذا الفعل التأملي مع زميلتي، لنكتب ليس لبعضنا البعض أو مع بعضنا البعض بل بين بعضنا البعض، ولقد بدأت كتابة تجربتي لأتبادلها مع زميلتي، ولكونها التجربة الأولى التي أكتب فيها لآخر، وتخص عملي وفضائي الذاتي وعلاقتي بطالباتي، جعلتني قلقة متوجسة بماذا سأبدأ؟ وعمَّ أكتب؟ وكيف ستنظر زميلتي إلي؟ وعلى الرغم من كل هذه التساؤلات، قررت الكتابة، كتابة تجربة كان لها صدى كبير في نفسي، كتبت وأنا أعتقد أنها تجربة ذاتية وشخصية، وعندما تسلمت دفتر زميلتي وجدتها قد كتبت لي ثلاث تجارب، تساءلت: لمَ كتبت كل ذلك؟ وعلى أيهما أعلّق؟ وكيف أكتب ملاحظاتي؟ وماذا ستكون ردة فعلها؟ تغلبت على كل ذلك ودونت ملاحظاتي بعد قراءات عدة، ولكني ما زلت أترقب في توجس ملاحظاتها، وكيف ستنظر إليَّ وإلى تجربتي.

الإنسان: جدلية التأثير والتأثر

الإنسان قصة مجتمع يحبكه بخيوط الثقافة والرغبة وإنسان يحبكها بفعل العقل والمقاومة كتاريخ، ولأن الإنسان تاريخي بطبعه أي أنه يعيش في وسط اجتماعي:

يكونه ويتكون فيه ويغيره
ويبدله ويتغير أثناء تبديله

من هنا فإن للمعلم أدواراً حيوية في المجتمع بقدر رصيده المعرفي ودوره المجتمعي بغض النظر عن مكانته السلطوية.

انتظرت يوم اللقاء، وأنا أتذكر قلق الامتحان، وكنت أتوزع بين الخجل من تلهفي لمعرفة نتيجة (ملاحظات) زميلتي، ولكني أحسست بقلق الطالبات وأدركت انتظارهن الدائم لكلمة شكر أو مديح، استلمت دفتري وبدأت بقراءة ملاحظاتها، ثم بدأ القلق يخبو رويداً رويداً، فها هي تطلعني على ما هو إيجابي وجميل في تجربتي، ثم تلفت نظري لأشياء تود التعليق عليها بشكل اقتراحات: ما رأيك لو . . . الخ .

فملاحظاتها لفتت نظري لأمور لم أكن أعيها على الرغم من أنها جاءت في طيات تجربتي المعبرة بصدق وألم عما يحدث معي، وبعدما كتبت وقرأت ملاحظاتها، وجدت أنني أنخرط في الكتابة بعمق أكثر وحرية أكبر، وكأنني قد اقتنعت بأن عملي وعلاقتي بطالباتي ليس شأناً شخصياً محضاً، بل شأن عام ومسألة سياسية، وقد اقتنعت بضرورة مشاركة الآخرين بها.

وسرعان ما تحول هذا القلق إلى أمل، بل بذرة زرعت، وإلى انبثاق إمكانية هائلة من تلك البذرة الأولى التي خشيت عليها ثقل التراب، وبدأنا نطور ذلك بالحوار العقلاني.

الصفحة البيضاء

عدت إلى بيتي وقد امتلأت ثقة لم أعهدها، وبلون حبر مختلف عما كتبت وعلقت زميلتي سجّلت هذه الملاحظات الشفوية:

وعدت وقرأت من جديد هذه الملاحظات ورأيت نفسي في مرآة جديدة لم أعهد رؤية وجهي على هذا الشكل، وأخذت ورقةً وبقلم رصاص بدأت أوضح ملامحي الجديدة؛ ملامح بدأت تتراءى على صفحة بيضاء.

فبعد الكتابة والحوار، عدت لأنظر لذاتي نظرةً أعمق، جعلتني أعرف نفسي وأعرّف الآخرين عليّ بطريقة تبدو غير مألوفة، لم أعد أتحدث عن اسمي الشخصي واسم الجامعة التي تخرجت منها، ولا اسم المؤسسة التي أعمل بها، بل أصبحت أعرّف ذاتي من خلال ما أقوم به من تدوين لممارساتي التربوية، ومن خلال ما أسطره لهم وبكل صدق وصراحة، فهذه الرؤية الجماعية التي يستوي فيها الشخصي والعام، متخطية الفوارق والميول والمواقف والأذواق، جعلت ما نمتلكه إرثاً جماعياً -إن صح التعبير- بعد أن كان إرثاً شخصياً أنتفع به وحدي، وهذا الإرث يسعى ويخدم التغيير المنشود في عملنا.

الآن أرى لذاتي معنى يتجاوز المعطيات الخارجية لهويتي، لا الاسم، ولا التخصص، ولا المكان، تحددني؛ فعملي وفعلي يحدداني ويسهمان في تحديد العالم والأمكنة.

وكان كل ذلك بمثابة جراحة فكرية لوضع هذه التجربة في حالة تعبئة دائمة، وإبدال المعرفة المغلقة والجامدة بمعرفة ناشطة، وإضفاء الجدلية على المتغيرات الكاملة.

تجربتي

ما سنقدمه لكم ليس كما حدث بالضبط، بل كما أحبه أن يكون، لن أغير في الوقائع، كل ما سأفعله توظيف لمبدأ الانتقاء والحذف، وهو سر الكتابة.

في اليوم الثالث عشر من شباط دخلت غرفة الصف، كانت حصتي بعد امتحان للغة العبرية، المقاعد مبعثرة هنا وهناك، الطالبات يتساءلن عن بعض الأسئلة ومعاني بعض المفردات الصعبة، ألقيت التحية، سارعن إلى ترتيب المقاعد والجلوس في أماكنهن، سارت الحصة على ما يرام، وقبل قرع الجرس بخمس دقائق أخبرت الطالبات بأن حصة الغد ستكون كتابة (تعبير)، وبما أن يوم الغد يصادف عيد الحب (الفالنتاين) تساءلت الطالبات عن موضوع الغد، لم أجب، لكن أكثرهن جرأة والأقرب إليّ

عيد الحب

كما تسميها الطالبات سألت بلهجة تجمع بين الجد والهزل، وتبدو عليها الرغبة: هل سيكون موضوع الغد عن عيد الحب؟ ابتسمت ولم أجبها، لكنها أثارت فيَّ رغبة جامحة في أن يكون موضوع الغد عيد الحب.

بدأت في المغامرة وطرح الموضوع، وفي الحوار مع زميلي اتفقنا على أن دخول المغامرة أفضل من تجنبها، وتساءلنا كيف يمكن معالجة الموضوع لأهداف توسيع المفهوم لدى الطالبات أولاً، وتصويب مفهومهن للحب الرومانسي وربطه بعملية بناء الحياة والمستقبل بشكل عقلاني.

ولذا، قررت اختيار صور لعرضها عليهن فيما بعد.

وفي اليوم التالي، دخلت الصف ومعي المسجل، وكنت قد جمعت مقطوعات موسيقية كلاسيكية ورومانسية عدة، ألقيت التحية، عادت الطالبات يتهامسن ماذا سيكون موضوعنا؟ سمعت بعضهن يقول: "يا رب يكون موضوعنا عيد الحب!"، ردت طالبة: "يا ريت!". ابتسمت وقلت: سيكون. خيم الصمت، قالت أحداهن: "عن جد راح يكون موضوعنا عيد الحب"، بدأت ردود فعل الطالبات وقد كانت متباينة، ثمة طالبات ليس لديهن اهتمام بعيد الحب، لذا لا يردن الكتابة ثانية "مس إذا بدك تكشفينا خلينا نحكي شفهي"، ثالثة: "أنا راح أكتب تجربتي"، رابعة: "أريد دماً لا حبراً لأكتب فيه". وهذه الردود المتباينة أكدت لي أن من تشجعت ومن رفضت كلاهما ربط مفهوم الحب كعلاقة رومانسية، وكأن طرحي له في هذا السياق قلص حدود المفهوم إلى بعد واحد، فقررت أن استمر لأعيد للمفهوم أبعاده الأخرى، وبعد ذلك طلبت الحديث بشكل شفوي عن قصة "الفالنتاين"، وكنت أتدخل للتركيز على شيء في السرد أو تصحيح معلومة، سألت الطالبات: ماذا يعني عيد الحب لنا؟ تلقيت الإجابات، ثم طلبت منهن أن يكتبن عن عيد الحب حسب مفهومهن. أدرت المسجل، توزعت الطالبات للكتابة، فمنهن من جلست على الأرض، ومنهن من جلست لتكتب على حافة النافذة، وأخرى أدارت ظهرها لزميلاتها، ورابعة طلبت إسدال الستائر وإطفاء الأنوار لتضفي على الجو رومانسية.

بعد خمس وعشرين دقيقة طلبت منهن التوقف عن الكتابة.

وزعت الصور التي أحضرتها، وكانت لكل صورة ثلاث نسخ.

طلبت منهن تأمل الصور، ثم أخرجت طالبة تحمل صورة، وطلبت منها أن ترفعها وتأتي الطالبات اللواتي يحملن الصورة نفسها، تحدثت الطالبات عما أوحت لهن الصور بعد المناقشة وما أوحت إليه الصور لكل مجموعة، وتوصلنا إلى مفهوم مختلف للحب، وأن عيد الحب لكل الناس مع اختلاف أعمارهم وأعمالهم، فهذا فلاح، يوم الرابع عشر من شباط هو بالنسبة له حفنة تراب، وهذه أم موعد مع الجنة، وهذا لاجئ موعد مع العودة، وهكذا يستطيع الجميع أن يحتفل به ويقدم الهدية لمن أحب، لكننا بحاجة إلى يوم واحد من كل عام نعبر به عن حبنا لمن نحب، ونقدم له الهدية تعبيراً عن حبنا السامي، ويمكن أن تكون غير الوردة والشمعة الحمراء، وبعد ذلك طلبت من الطالبات أن يكتبن عن موضوع الحب من جديد، وبذلك تكون كل طالبة قد كتبت موضوعين، وقبل نهاية الحصة وزعت على الطالبات ورقة طلبت منهن كتابة أسمائهن، وكتابة أي الموضوعين تود أن توضع عليه علامة مع ذكر السبب.

وكم كنت متشوقة لقراءة الموضوعات، ومعرفة ما اختارت الطالبات، ولماذا؟ وبخاصة بعد سماعي للطالبة التي أرادت دماً لا حبراً.

بدأت القراءة، ولم أشعر بالملل، فهذا موضوع يضج بالمشاعر الرومانسية ودفء العاطفة وطهارة العلاقة، وآخر يحمل ألم البعد والفراق نتيجة القيود الاجتماعية، وبقدر ما كنت متشوقة كانت طالباتي يطلبن، وبحماس شديد لم أعهده من ذي قبل، رأيي في موضوعاتهن.

هذه التجربة جعلتني أقرب لطالباتي، فقد كانت كتابتهن صريحة وألقت عليّ مسؤولية وأمانة عظيمة، لأنها كشفت بعض المشاكل الشخصية والعائلية، وجعلت الطالبات يتوجهن إلي للحفاظ على خصوصيتهن، فلقد تعرفت أكثر على طالباتي على الرغم من أني أعلمهن منذ ثلاث سنوات، الآن سقط الحاجر الذي كان بيننا.

كم كانت التجربة جميلة وغريبة، كسرت الجليد والروتين، وجعلتنا ننظر إلى الأمور بشكل أعمق وأشمل.

عرضت زميلتي تجربتها (الغش)، وها هي تجربتي، تبدو التجربتان في عناوينهما مختلفتين، لكن الحوار والنقاش وما تبعه جعلنا نكتشف خيطاً بينهما، وهو أن معظم ما نعتبره -كمعلمات- فساداً من الطالبات وسلوكيات مزعجة، هو في جانب كبير منه محاولة للتعبير عن الذات، أو محاولة لإظهار وجودهن في وجه نظم وتعليمات تسحقهن؛ فالغش أو رسائل الحب أو الإدعاء بكره النظام والتمرد عليه، كلها تعبيرات مختلفة عن الحاجة إلى تحقيق الذات، ولذلك توصلنا إلى أن نجعل التعليم مساحة لاكتشاف الذات وتحقيقها والتعبير عنها.

خاتمة

(إن العقلانيين هم الذين لا يأبهون بالدخان والضباب اللذين يستخدمهما اللاعقلانيون لزرع الشكوك حول وضوح المفاهيم المتأنقة، وكأنهم لا يدركون أن الإفراط في الوضوح لا يقل عنفاً عن التفريط بالنور، ولذلك فللعتمة ضرورة لنتعلم صناعة الضوء).

ولن يكون ذلك إلا من خلال الالتفات لقراءة الذات بصورة أعمق، وإدراك عناصر القوة الروحية والثقافية والمهنية، والعمل على استخدامها بصورة عقلانية، تعيد إنتاجنا كقوة ثقافية قادرة على إحداث التغيير من جديد.

ولكي لا نكون أجيالاً تسعى إلى القمة دون أن تغوص لتلامس القاع، فإن علينا العودة إلى القاع؛ أي التجربة إلى الحياة، لنتناولها كجزء من مشروع إنساني، يجعله كاشفاً لحاضر مغاير.

وإن كانت الكتابة في البداية مرآة، عدنا ورأينا أنفسنا من زاوية أخرى كما رآها الآخرون، فلقد تحولت الكتابة فيما بعد إلى عدسة تكثف الخيوط وتكسرها في بؤرة لتخلق حالة من التأمل والتفاعل والتوجيه والتفكير في إيجاد الحلول التي طالما لاحقتنا في السيارة، والمطبخ، وأثناء قراءه الصحيفة اليومية، أو مشاهدة برنامجنا المفضل، أو أقلقتنا فتحولت إلى مشروع ممارسة يبحث عن حل، وجعلتنا نعيد التفكير في إعداد الدرس وتقديم المعلومة، فمن خلال مرورنا بالكتابة والحوار والتأمل، ثم الحوار الداخلي، أصبحنا نهتم بالعالم لا بالمعلومة، نفكر بالحياة لا بالكتاب، فأصبح الموضوع يمر في سلسلة عمليات لإعطاء المعلومة، وتحقيق تعلم ذي معنى وديمومة، وهذا يجعلنا -كعارفين- أصحاب تقويمات ربما كانت متضادة مع أصحاب الفكر الإنساني الذي يتخلى عن التجربة المباشرة إلى التجربة المنظمة، لجعل الفكر الإنساني فعالاً ومتسائلاً، وينتقل من الملاحظة إلى المنظومة، ومن العيون المندهشة إلى العيون المغلقة، وهي بداية الإرادة الإنسانية، لنكن محركين للتاريخ لا لعبة في يده، لأننا نمتلك جرس اليقظة في ضمائرنا وصدورنا، لنعيد الصلة من جديد بين الواقع والمأمول، لتلد الإرادة ولو كانت الولادة بطيئة وعسيرة.

أمل قطّاوي
معلمة في مدرسة راهبات الوردية، وعضو منتدى رام الله